رواد الإصلاح الجزائريون خلال الفترة الحديثة "ابن العنابي" أنموذجا.

Algerian reform pioneers during the modern period "Ibn Al-Annabi" as a model

قاسي فريدة.
مخبر الدراسات المتوسطية عبر العصور؛ جامعة يحي فارس؛ المدية(الجزائر).
البريد الإلكتروني: *kaci.farida@univ-medea.dz*

تاريخ الإرسال: 2022/10/13؛ تاريخ القبول:2022/11/26؛ تاريخ النشر:2022/12/15.

الملخص:

منذ أوائل القرن التاسع عشر-وبوصول الضعف الى الدولة العثمانية في وقت أخذت فيه عوامل ومظاهر القوة تزداد وتشتدّ عند الغرب -ظهرت إلى الواجهة شخصيات لها ميول إلى الإصلاح، منتقدة بذلك الأوضاع السائدة في مجتمعاتها الإسلامية.

وفي هذا السياق تندرج ورقتنا البحثية ضمن سمات الحياة الثقافية في الجزائر خلال الفترة الحديثة من تاريخها، بتناول مواضيع رجالات الإصلاح الفكرية وجهودها البارزة إبان الفترة السالفة الذكر، نسعى من خلالها إلى إبراز دور الأسر العلمية الجزائرية في ترشيد تلك الحياة، باستجلاء موقف أحد روادها ابن العنابي من واقع جزائري مرير توقّف به الزمن، ليصبح تحت وطأة التخلف ومحطّ

أطماع الأعداء من خلال أفكاره التي فرض نفسه بها في بوتقة تيار الإصلاح في إطار مساعيه وأراءه التحديثية.

الكلمات المفتاحية: الأسر العلمية؛ السلطة العثمانية؛ الاصلاح؛ ابن العنابي؛ الحداثة.

Abstract :

Since the early nineteenth century - and the arrival of weakness in the Ottoman Empire at a time when the factors and manifestations of power were increasing and intensifying in the West-figures of a tendency to reform emerged to the front, criticizing the conditions prevailing in their Muslim societies.

This research paper is a feature of Algeria's cultural life during the modern period of its history. By addressing the topics of intellectual reform men and their outstanding efforts during the above-mentioned period,Through which we seek to highlight the role of Algerian scientific families in the mold of that life.by explaining the attitude of one of its pionners ,Ibn Annabi, to a bitter Algerian reality in which time has ceased, to become under the weight of underdevelopment and the focus of enemies' aspirations through his self-imposed ideas in the crucible and the tide of reform in his endeavours and modernizing views.

Key words: scientific families; Ottoman Power; Reform; Ibn Annabi; Modernity. □

مقدمة:

عرف المجتمع الجزائري خلال الحقبة العثمانية كغيره من المجتمعات الانسانية ظاهرة الأسر المتنفذة، التي تمكّنت من البروز في مجالات عدّة أو اكتفت بالتخصص في مجال معين، حتى أصبحت تُصنّف حسب مجال اختصاصها وفروعها، فكثيرا ما سمعنا عن أسر

برزت في الجانب السياسي فيما اختصّت غيرها في المجال الديني والعلمي.

كان من أهم العائلات الدينية التي عرفتها الجزائر ابّان الفترة العثمانية آل العنابي التي هي حجر الزاوية في دراستنا التي تروم تسليط الضوء على واحد من أبنائها الذين لعبوا دورا هاما في مؤسسات عدّة على غرار هيئة الإفتاء، والمناداة بالإصلاح في مجالاته المختلفة، حتىّ كان من الرواد الأوائل للنهضة الجزائرية الإسلامية من خلال أفكاره التجديدية والتحديثية، سبق غيره من أبناء جلدته المغاربة كحمدان بن عثمان خوجة ومن المشارقة كرفاعة رافع الطهطاوي ومحمد عبده.

وتطرح هذه الورقة جملة من التساؤلات المتمحورة حول: ما هي منطلقات برنامج ابن العنابي التحديثي؟ ما مرتكزات رؤيته في الإصلاح الذي ناشده؟ وما المجالات التي َمسّتها تجربته التحديثية؟

1. تعريف مصطلح الأسر العلمية:

1.1. لغة واصطلاحا:

يُعدّ مصطلح البيوتات من المفردات ذوات الدلالات الكبيرة والواردة في تراثنا الإسلامي، فلم يكن يطلق على الأسرة مصطلح البيت ما لم تتّسم بجملة من الخصائص التي من شأنها أن تؤهلها لتأدية أدوار بارزة في جوانب الحياة المختلفة.

وفي ضبط المفهوم اللغوي للبيوت ،يقال: "هو بيت لجمع أبيات أو بيوت وبيوتات"،و"البيت هو المكان الذي يأوي إليه الانسان،كما يعني عيال الرجل،ويُقْصَدُ به المرأة"(الفيروزأبادي،2005،ص: 137)، كما يتفق اللّغويون على أنّ معاني البيت حاملة لمدلول الشرف، بقول العرب: "فلان بيت قومه بمعنى شرفهم"(ابن منظور جمال ،ص : 393).

وذهب ابن خلدون في تعريفه-الأكثر دقة من السابق- للمصطلح ذاته إلى القول:"إنّ معنى البيت أَنْ يعتمد الرجل في أبائه أشرافا مذكورين، تكون له بولادتهم إياه والانتساب إليهم تجلة في أهل جلدته، لما وفّر في نفوسهم من تجلة سلفه وشرفهم بخلافهم"(ابن خلدون عبد الرحمن، 2003،ص: 137).

ومن ذلك تَبَيّنَ لنا جليّا ما يحمله المصطلح من علاقة تلازم بين مفردة البيت والشرف والحسب، إذ وردت في كتاب الله ﷻ مفردة آل والتي تحمل مدلولا للبيوت الكبيرة، منه قوله ﷻ:"إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ"(سورة آل عمران،آ: 33، 34).

واستنادا إلى كل ما تقدّم من تعاريف، توَصَلْنَا إلى ما مفاده أَنَّ البيوتات هي أسر متنفّذة، تمكنّت من البروز في اختصاص معين أو في عدة مجالات. كما تَبَيَّنَ أن المُرَاد من لفظة البيوتات تلك الأسر الحائزة على المجد والحظوة العلمية والولاية والثروة والجود والشجاعة (لزغم فوزية،2014،ص: 4)، ولما كان بعضها أكثر تميزا عن غيرها جاها وثروة ونفوذا، فقد استفادت تلك ممّا هي عليه من علو في الشأن والحظوة والمكانة باحتكار المناصب الرفيعة سياسيا وعلميا أو دينيا.

2.1. مفهوم الأسر العلمية عند علماء الفترة الحديثة:

أضحى مصطلح البيوتات أو الأسر واسع الاستعمال والتوظيف في الفترة الحديثة، وقد ورد بشكل كبير في مصنّفات عدد لا بأس به من علماء تلك الفترة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر تداوله عند الشيخ عبد الكريم الفكوّن في كتابه منشور الهداية(بوخلوة حسين، 2009،ص:01)، أثناء حديثه عن ابن نعمون في قوله: "وهم في دار عافية،

ومن بيت بقسنطينة، وشهرتهم في أسلافهم"، كما وُصِفَت أسرة الفكون بالبيت على لسان علماء العصر الحديث، كإشادة الشيخ أحمد المقري في رسالة له إلى كبيرها قائلا: "هو العَالِمُ الذي وَرَثَ المجد عن كلالة، وتحقَق الكل أن بيته شهير الجلالة، بيت بني الفكون، هضاب العلم والوقار والسكون"(ابن الفكون عبد الكريم، 1987، ص: 80).

3.1. علاقة السلطة العثمانية بالأسر الجزائرية:

خلافا لما جرت عليه العادة على عهد الدولتين الزيانية والحفصية في اعتماد أجهزتهما على العلماء، حيث كان منهم الحاجب والكاتب والوزير وناظر الأشغال(لزغم فوزية،2014 ،ص:441)، ففي العهد العثماني جُرِّدَ أبناء الأسر ممن ارتقوا في درجات العلم من ذلك الدور السياسي لاحتكار العثمانيين المناصب السياسية والعسكرية، ليبقى مجال تدخلهم ومساهمتهم محصورا في دور الوساطة السياسية، بحكم الجاه والنفوذ اللذان تميّزت بهما تلك العائلات طيلة التواجد العثماني في الجزائر. فقد سعت السلطة العثمانية جاهدة في مرحلتها الأولى على تقريب رجال الدين والعلماء المرابطين كواسطة بينهم وبين السّكان قصد خلق نوع من اللطف والسماحة في علاقتهم بهم، لتستمر العلاقة على هذا النحو إلى غاية نهاية القرن الثامن عشر، كان أقل ما يقال عنها أنها اتّسمت بالتقارب والخضوع للسلطة، فيما تميّزت طيلة فترة القرن السادس عشر- لارتباط التواجد العثماني بالجزائر بطابع الجهاد ضد الغزوات الصليبية على السواحل المغاربية سيما الجزائرية منها- بالتأييد من رجال الدين والمرابطين، خصوصا وَأَنَّهم وُظِّفُوا في بعض المهام حتّى كان للدولة يد في بزوغ ونشأة هذه الأسر، وتنامي

أدوارها وفي استمراريتها بحكم ما كان لها من مؤهلات جعلت السلطة تستنجد بها، كمكتسباتها الثقافية العالية، ومؤهلاتها ذات الصلة بالآداب العامة كاللياقة والإقدام والفروسية، وتلقيهم من آباءهم مبادئ الوظائف التي شغلوها، ونقل تجاربهم وممارساتهم السياسية لهم.

كان لمثل تلك العلاقة أَنْ اسْتمرَّت طيلة الفترة من مطلع القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر على ما كانت عليه طيلة القرون العابرة، إلى أَنْ ظهر نوع من التنديد لسلوكيات رجال الدولة إبَّانَ الفترة المذكورة.

ولمّا كانت قوة المجتمعات نابعة من قوة القبيلة في إطار العصبية الخلدونية، والتي استُمدّت من قوة البيوتات المُكَوِّنَةِ لها، وأمام ازدياد قوة هذه الأخيرة وتَعَاظُمِ دورها، فقد أصبحت السلطة ذاتها أو مصدر التسلط والحُكْم بتحوّل بعض من أجهزة الملك إليها(خليفي رفيق، 2008،ص :23)، أمام حاجة السلطة - وهي في مهبط نفوذها على كافة أرجاء الإيالة -الشديدة لتوحيدها تحت سلطة إدارة مركزية واحدة، ولمّا لم يَكُن بالأمر الهَيّن لها استعانت بهذه الأطراف الفاعلة في المجتمع الجزائري، متقاسمة المهام، فَإرضَة مركزية حُكْمِهَا بما قد يضمن نجاح الأسر الجزائرية والسلطة العثمانية معا(لزغم فوزية، 2014،ص:422)، إلا أنها -الأسر-لم تتمكن من تبوأ أعلى المراتب السياسية في الدولة كمنصب الباشوية، مثلما لم تُوَكَّل لها مهمة تسيير شؤون السلطة، بل كان الإفتاء والقضاء أعلاها مرتبة، فضلا عن تقريب أفرادها إليها رافعة من شأنهم باحترامهم واستفسارهم والأخذ برأيهم، وما تنصيبهم في بسط نفوذها في البلاد إلاّ إدراكا

منها لقدرة العلماء والمرابطين من أولادها في التأثير على العامّة، ولثقة هذه الأخيرة فيهم.

وفي هذا السياق، عمدت السلطة إلى مَنْح سلسلة من الامتيازات المادية والمعنوية المختلفة، وكان ذلك إيذانا بظهور عائلات علمية موالية للسلطة، تربطها المصلحة المشتركة في الجهاد لكسر مزاعم الاحتلال الصليبي لامتلاك المدن الجزائرية، بعد أَنْ أضحى خطرا متزايدا على الإيالة، فكان لمثل تلك الحالة أَنْ دَعّمَت صفوف التحالف والتقارب بين العلماء والعثمانيين لحاجة كل طرف للأخر، على غرار حاجة العثمانيين لإنقاذ البلاد م الفوضى والاضطراب (أبو القاسم سعد الله، 1998، ص: 409).

2. مفهوم الإصلاح ومدلوله:

وردت مفردة الإصلاح في الثقافة الإسلامية كفكرة وسلوك، مثلما كانت منهاج الفرد المسلم ومبتغاه في الحياة الدنيا ليلقي راحته في الأخرة، لذلك اعْتُبر الإصلاح مصطلحا إسلاميا تقترن ذاتيته بظهور الرسالات السماوية كالعهد الجديد والإسلام.

وعلى ذكر الرسالة السمحاء، لم تكن الكلمة لتقتصر على تيار فكري عَرَفَهُ العالم الإسلامي فحسب، بل تداول استعمالها كمدلول لغوي يقتضي: "زوال الفساد ونقيضه حسن الأحوال" مثلما جاء عند الزمخشري في كتابه: "باعث في الذهن لأعمال مضادّة للفساد ولتقويمه وإزالة الخلل المحدثة من جرائه في جوانب الحياة المختلفة" (الزمخشري أبو القاسم ، 1974، ص: 359).

كان للفظة ذاتها ذكر في التراث، باستعمالات واسعة منها الإشارة إلى معنى الصلح في قوله ﷻ: "فَمَنْ عَفَى وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى

اللَّه"(سورة الشورى،آ:4)، وكذا قوله ﷻ: "فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"(سورة الأعراف،آ: 7)، ومن الآيات ما تفيد الأعمال الصالحة ﷻ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ"(سورة يونس،آ: 10)، ولما كان الفساد مضاد للصلاح فقد نهانا الله ﷻ عنه في آيات كثيرة من كتابه العزيز كما في قوله ﷻ: "وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا"(سورة الأعراف،آ: 84)، مثلما اقترنت بالإيمان والكفر والرحمة في قوله ﷻ :"وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ"(سورة الأنبياء، الآية :75)، ولعلّ المتأمل في مدلولها يجدها في مجملها آيات بينات داعية للإصلاح، ساعية لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

حوى الإصلاح في مدلوله اللغوي في الأحاديث النبوية معاني التجديد والتحديث والعصرنة، طارحا التقليد القديم، داعيا إلى محاكاة اللامعهود والمُبْتَكَر، كما أفاد الاقتباس من السّيَر والغير، وهو ما حبّذته الشريعة الإسلامية ومذاهبها الفقهية ما لم يرد له نَص في القرآن والسنة، وما لما يكن فيه ضرر على العقيدة أو مساس بها أو دعوة للشرك.

يقودنا كلامنا عن الإصلاح إلى تناول مفردة التجديد، وهي بدورها تحمل معاني لغوية تنم عن الإحياء والبعث وإعادة الأفكار، كما تُعَدُّ حاجة طبيعية لدى الإنسان وسُنَة الله في خلقه. ذلك أن حاجته إليها تستدعيها قساوة ظروفه الاجتماعية والسياسية، وحدّة مشاكله، وكآبة واقعه الموحي له بالفساد والانحلال والانحراف، ولا سبيل للإصلاح إلاّ بفتح باب الاجتهاد لمواجهة المستجدات السلبية (حاجي فريد،

2010،ص ص:16-17)، التي تَحُولُ بينه وبين القيام بواجبه على أحسن حال، بغية إتمام رسالته على وجه الأرض.

بهذا يكون الإصلاح تراكم لسلوكيات إنسانية وحضارية في جوهر الفرد المؤمن، كما يُعدّ عملية تعبير هادفة إلى إحداث تغيير واقعه وسط مجتمعه في مناحيه المختلفة وفق برنامج مُسطّرٍ من قبله، يرمي من خلاله إلى تحقيق الغايات بأساليب ومناهج حضارية أساسها التفاعل بين المصلحة والمجتمع الذي هو بحاجة للتقويم وفقا لمنظور الشريعة الإسلامية، بمرجعياتها وهما القرآن والسُّنّة والسَّلَف الصالح، مع ارتباط مفهومه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

3. التعريف بشخصية ابن العنابي:

1.3. ميلاده ونشأته:

هو محمد بن محمود بن محمد بن حسين بن محمد بن عيسى الأزميتلي الجزائري المشهور بابن العنابي من رواد المذهب الحنفي، وأسرة آل العنابي من مشاهير البيوتات العلم بالجزائر، والتي ترجع أغلبية المصادر التاريخية أصولها الى إسطنبول، استقرت بعنابة ثم انتقلت إلى مدينة الجزائر مركز السلطة والوظائف الإدارية، وفي وصف محمد بيرم الرابع لرائد التجديد يقول: "هو من بيت علم ودعائمه أَعَزَّ وأطول، وأساس أَحْكَم وأكمل"، تَولَّى عدد من أفرادها الفتوى والقضاء على المذهب الحنفي بمدينة الجزائر، فكانت قريبة من مقاليد السلطة وذوي النفوذ في البلاد، وترجع أغلبية المصادر والدراسات تاريخ انتقال الأسرة إلى مدينة الجزائر إلى منتصف القرن السابع عشر ميلادي، لكونها مركز السلطة والجاه والحظوة(لزغم فوزية، 2014، ص:42).

أصبح آل العنابي من الأسر ذات الحظوة في دار السلطان خلال القرن الثامن عشر الميلادي، تولّى اثنان منها الفتوى على المذهب الحنفي وهما الحسين العنابي وحفيده، ولحظوظهما كان للأسرة تأثير في السياسة حتى أضحت محل الطامعين ومستنجد الظالمين(لزغم فوزية، 2014،ص: 64).

أخذ والد العنابي-الشيخ محمود بن محمد بن حسين بن محمد المتوفي عام 1236 هـ/ 1820م -العِلْمَ بمدينة الجزائر عن علمائها، أمّا عن رائدنا فهو من مواليد مدينة الجزائر عام 1188هـ/1775م، نشأ بها وتَتَلْمَذَ على يد علمائها من عائلته، إذ قرأ على والده محمود بن محمد القرآن الكريم والعلوم المتداولة في عصره، كما تَرَبَّى على فضائل القرآن على يد جده محمد بن عيسى، ليتتلمذ على يد شيخه عَلِيّ بن عبد القادر بن عبد الرحمن بن علي بن الأمين الجزائري (ت سنة 1235ه/ 1820م) مفتي المذهب المالكي بالجزائر العاصمة، والذي أخذ عنه صحيح البخاري وكان كثيرا الاقتداء به (نويهض عادل،1980،ص: 24).

تَعَمَّقَ ابن العنابي في علوم الدين، فتمكّن في العلوم الشرعية بدرجة متفوقة تأويلا وتحليلا، وتَوسَّع في العلم والتحرير والتأمل، كما كان عالم المنقول والمعقول، عُرف بحبِّهِ للثقافة التي نهلها من أسرته بحكم التقاليد العريقة عنها، ولاهتمامه الشخصي بها(شاوش حسين، 2009 ،ص :92).

ساهمت جملة من العوامل في إعانته للسير قدما في مجال العلم والتحصيل، أوّلها تَقَرُّبَه من السلطة الحاكمة بدار السلطان، ثم كثرة أسفاره وتجواله، وهو ما سمح له بمتابعة كافية ووافية لمجريات الأحداث وتطورات الأدوار، ناهيك عن انتمائه الأسري إلى أسرة العنابي

ذات التقاليد العريقة والمعارف الغزيرة، ثم تنوع المناصب التي ورث حظا منها عن أجداده والذين كانوا موضع ومحلّ إصدار الأحكام، وأخيرا لمكانتهم التي لطالما تمتّعوا بها لدى العامة والخاصة.

كان لفريضة الحج التي أداها مرات عديدة (لمرتين) الأثر البالغ في نبوغه واكتسابه بحرا من المعارف جعلته تنقل في طلبها عبر أقطار العالم الإسلامي، فكان أن تَعَرَّفَ عن كَثَبٍ على أحوالها سيما وأَنَّهُ فيما يُذْكَرُ قد تزعّم إرساليات رسمية(الزهار أحمد ،1980،ص ص: 117-130)، إلى جانب ذلك فقد تبَوَّأَ ابن العنابي مناصب رفيعة، افتتحها بالقضاء حينما تولاه على المذهب الحنفي بمدينة الجزائر عام 1207هـ/ 1793م وهو ابن الثمانية عشر سنة، فأقام فيها لسنتين، ثم عَزَلَ نفسه منه لأمر مخالف للشرع ألزمه بفعله داي الجزائر(الزهار أحمد، 1980،ص:187)، ليتولى المهنة ثانية عام 1209هـ/1795م في المدينة ذاتها لثلاث سنين، لينتقل بعدها إلى الإفتاء من عام 1212هـ / 1798م إلى غاية سنة 1235هـ / 1820م، إلَّا أَنَّ بعض المصادر ممَّنْ تُؤكد تَوَلِي ابن العنابي لمهمة القضاء الحنفي زمن الداي أحمد باشا، وهو ما أورده أحمد الشريف الزهار في مذكراته(الزهار أحمد،1980،ص: 96)، علاوة على مهمتين كبيرتين نُسِبتا اليه كانتا القضاء والكتابة إلى باي تونس دون غيره من الكُتَّابِ الرسمين له.

ذكرت المصادر الأجنبية حضور ابن العنابي في مجلس علمي عام 1226 هـ/ 1811م (Albert De veloux, 1852: p77) ، على اعتباره مفتي الحنفية، مثلما ذُكِر اسمه محمد بن محمود ضمن قائمة وزراء وأعيان الداي عمر باشا حينما كلفه بمنصب نقيب أوقاف مكة والمدينة(الجيلالي عبد الرحمن،2010،ص:352؛ التميمي عبد الجليل، 1972،

ص:225)، فيكون بذلك جامعا لوظيفتي القضاء والإفتاء في آن واحد، أو يكون قد تناوب عليهما إلى غاية انفراده بالإفتاء على المذهب الحنفي خلال عامي 1232 هـ/ 1817م و1233 هـ/1818م، ويَظَلّ في منصبه هذا إلى غاية عام 1235 هـ/ 1820م سنة سفره لأداء الحج .

تولّى منصب الخطابة -إلى جانب الإفتاء- بحكم العادة التي مُنحت لكل من تولّى منصب الفتوى أن يكون خطيبا بالجامع الجديد عام 1236هـ/1821م، ارتحل مع والده إلى المشرق حاجا مصاحبا أخ الداي حسين باشا (محمد أفندي)، وبوقوع معضلة بين والده وأخو السلطان (محمد أفندي) اضطرّ العنابي للبقاء بالإسكندرية رفقة والده لتسع سنين، لِيَتَرَدَّدَ على الحج لمرات، ويدرس الفقه والحديث بالأزهر.

خلال الأشهر الأولى من تاريخ المقاومة الجزائرية ضد المحتل الفرنسي وَكَلَ إليه الداي حسين باشا مهمة رفع الروح الجهادية، ليعيّنه على رأس قيادة الجيش الجزائري بعد هزيمة سطاوالي، إذ أَمَدّه بسيف وطالبه بِحَثّ الناس على الجهاد ضد الفرنسيين(خوجة حمدان، ص : 178؛ سعد الله أبو القاسم، 2000،ص:32)، وبحكم صلاح وعدالة الرجل -و هي خصال لَازَمَتهُ طيلة مشواره- فقد أخذ على نفسه مكاتبة الجنرال الفرنسي، حتّى قادته كثرة شكاويه لأن يكون موضع شبهات من الإدارة الفرنسية، لتتأزّم علاقاته معها بعد أن أُحِيكَت له مؤامرات(الجيلالي عبد الرحمن،2010،ص :355)، قَرَّرَ خلالها كلوزيل سجنه، ثم نفيه خلال مدة صغيرة، سيما وأنّه كان حَجَر عثرة للسلطات الفرنسية عندما أجبرته على تسليمها مفاتيح مساجد مدينة الجزائر لجعلها مستشفيات للجيش لمدة شهرين، فقد حمَلته جرأته لرفض مطالبها، فضاقت به ذرعا ووضعت له حدًّا بسجنه،

وإهانة أسرته بتهمة المؤامرة ضد الوجود الفرنسي وإعادة الحكم العثماني إلى الجزائر، فنُفي على إثرها بأمر من الجنرال الفرنسي إلى مصر(الجيلالي عبد الرحمن، 2010،ص ص:355-356)، دون إهماله مهمّة تسيير شؤون أسرته وتصريف ديونه، فحطّ رحاله بالإسكندرية في خريف عامي 1245-1246هـ/1830-1831م، ليزيل بذلك الستار على نشاطه في الجزائر، ويخوض مشوارا فكريا في بلاد الغربة أين ولاّه والي مصر محمد علي منصب الإفتاء على المذهب الحنفي والذي بقي فيه طويلا إلى غاية عام 1265هـ/1849م، تاريخ عزله من قبل الباشا والي مصر (عباس باشا) لكتابه الذي ألّفه والموسوم "صيانة الرياسة في القضاء والسياسة"، بطلب من محمد والي مصر قاصدا من وراءه القضاء على الفوضى الناجمة عن اختلاف الفتاوي بين المناصب، وكثرة ارتشاء المفتيين، والذي أراد الباشا المصري إنهاءها بكتاب جامع لأقوال المذاهب الأربعة، موافقا بذلك لقوانين السياسة، إلاّ أَنّ والي مصر (الباشا عباس) وبسعي من المفتين والمشايخ تَمَّ إبطال هذا الكِتَابِ بعد اقناعهم للباشا بعدم جوازه، متَّهمين ابن العنابي بالزندقة أمام انقطاع استرزاقهم في تحرير الفتاوي .

2.3. منطلقات ابن العنابي:

تَجَسَّدَت سلسلة من الاضطرابات لازمت عصره سيما طيلة السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر، نتيجة الحركات التحررية التي قامت هنا وهناك (عصمت زينب، ص:9).

في خضم تلك الأحداث لم تكن الدولة العثمانية وولاياتها بمعزل عن هذه التطورات -فمثل ذلك التطور الحاصل عند دول أوروبا إبان القرن التاسع عشر، وبفعل تراكمات مرجعها إلى عدة عوامل مَسَّت

تلك الدولة بإيالاتها المختلفة، وتأكد لها وللعيان عدم قدرتها على مسايرة التقدم الأوروبي ومواجهة التغيرات الحديثة (السيد محمد،ص: 225)، وأمام عجزها التام أحيانا والنسبي أحيانا أخرى في إدارة مؤسساتها الفكرية والاقتصادية والاجتماعية، ظهرت فكرة التعايش مع العصر لتكون قضية شاغلة لفكر وأذهان علماء البلاط ومفكريه، فَبَدَت إلى الواجهة كفكرة جوهرية لا يمكن التغاضي عنها أو تجاهلها، ونُظِرَ إليها بمنظور مختلف.

أَمَّا عن الظروف الداخلية التي عرفتها بلاده الجزائر فقد تلخّصت في احتدام الصراع والتنافس على الحكم في الطبقة الحاكمة (الزهار أحمد، 1980،ص:134؛ خوجة حمدان،ص ص: 150-151)، بين طبقة رياس البحر والجيش الانكشاري، واندلاع نيران النزعات والثورات المحلية في ربوع التراب الجزائري كالثورة الدرقاوية وثورة ابن الأحرش(الزهار أحمد، 1980،ص : 134؛ خوجة حمدان، ص ص :150-151)، ناهيك عن الأخطار الخارجية المتمثلة في الحملات العسكرية المتكررّة على الجزائر(وولف جون، 1986، ص: 444)، فمأساة فقدان الأندلس وغيرها من تلك التي رسخَت في ذاكرة ابن العنابي، ليتفطّن لذلك الواقع المرير والمقلق الذي يتخبط فيه العالم الإسلامي في ظل رعاية الدولة العثمانية له، وقد زاد من حدة ذلك الصراع القائم بين تيار المحافظين الداعي إلى التمسك بكل ما هو قائم ولو كان قديما، والتيار الداعي إلى التجديد ومسايرة روح العصر منذ عهد السلطان سليم الثالث.

تَجَوّل ابن العنابي متدبِّرًا أحوال العالم الإسلامي وسط تلك الأحداث المليئة بالمفارقات والاضطرابات، وحين إقامته بمصر عايَن

تجربة واليها محمد علي وهو يخطو بخطوات عملاقة نحو التجديد، باستجلاب النظم الغربية إلى الجيش والإدارة وباقي مجالات الحكم، ومثل تلك الأحوال المتردية والتي لا تنبئ بخير دفعته إلى أن تكون له كلمته، لاسيما بعد زيارته لمصر الحافلة مكتباتها بأمهات الكتب وخيرة العلماء، ومسايرة الآراء الجديدة لينشر كتابه الموسوم "السعي المحمود في نظام الجنود" ناصرًا به دعاة التجديد، ساعيا وفق خُطَى نحو التحديث للحاق بمصاف الدول الغربية من قفزة نهضوية علمية.

كان ابن العنابي من أوائل الفقهاء الذين لم يكتفوا بنقد ذلك الجمود العقلي الذي ران على الأمة الإسلامية قاطبة سيما الجزائر، داعيا إلى الاجتهاد واستعمال الجهود والأخذ بأسباب النهضة الغربية، والحدّ من نشاط الدراويش الذين أَضَرُّوا بالمجتمع قاطبة، فكان تدعيما لمَا جاء به سلفه ابن الفكون، مثلما غاصت آراؤه في الديمقراطية السياسية وتوزيع الثروة واختيار الأكفَّاء في الإدارة وغيرها من المسائل التي حُرِمَ طرحها على الفقهاء ممّن سبقوه (سعد الله أبو القاسم، 1998، ص ص: 09-10).

4- مجالات البرنامج الإصلاحي لابن العنابي:

1.4. الإصلاح في الميدان العسكري:

شكّل الجيش الأوروبي الحديث المادة الدّسمة ومنطلق دعوة النخبة للإصلاح قصد تجديده، وإصلاح نظمه العسكرية إبّان القرن التاسع عشر الميلادي، وقد كانت نظرة النخبة المغاربية مختلفة الأبعاد، ولم تكن على نفس الصورة ولا على نفس الفهم، فمنهم من كانت نظرتهم عابرة في السياق التاريخي لمجريات الأوضاع العامة لممالك أوروبا، ومنهم من كانت ثاقبة اكتساها الطابع الحسي النقدي

كالمناداة بالإصلاح بحكم ضرورته، والاقتباس من الأنماط الأوروبية الحديثة.

انطلقت إصلاحات ابن العنابي من الجيش بدافع الجهاد الذي دعا إليه الإسلام في كتاب اللّه وسنة رسوله المصطفى ﷺ، قصد تحرير البشر من الاستعباد والظلم، وإقامة دولة يسودها العدل وهي في مجملها أهداف لا يمكن تحقيقها إلاّ في ظل دولة قوية بجيشها القوي القادر على توفير الأمن الداخلي، والدّفاع عن مصالحها الخارجية، وتحصين ثغورها وصيانة محارمها ودماء أفرادها.

كان الواقع المرير مصدر ومنطلق أرائه التحديثية، وقد بثّ في قرارة نفسه الاهتمام بإصلاح الجيش، مثلما كان تأييدًا لسياسة الإصلاحات التي باشرتها الدولة العثمانية في إطار تحديث أجهزتها سيما العسكرية منها، فكان بذلك برنامجه دعوة موجهة إلى العلماء الرافضين لهذا المنحى الإصلاحي التحديثي الذي انتهجه السلطان محمود الثاني بكونه تأييدا لجهوده ومنحاه، مُبَرِّرًا عوامل القوة في الخصم وسلبياته على قوة وأمن المسلمين والإسلام قائلا :"لَّما حدث في هذه الأعصار الأخيرة، تطاول طغاة الأمم الكافرة بترتيب أجنادهم عن طريقة مُحْكَمَةٍ استدعوها، وتدريبهم على فنون حيل اخترعوها قصد المكيدة للإسلام وأهله، وسعيا في استباحة حماه وتمزيق شمله" (ابن العنابي محمد، ص: 51)، وفي ذلك إقرار بالتفوق للخصم وأخطاره على الإسلام والذي أرجعه إلى القوة العسكرية بما فيها من صناعة حربية، وعلمه بموقف الانكشارية وهي على نظامها العنيف المعارض للإصلاحات العثمانية، لذلك أُخذَ بمأخذ المساس بالشرع والخروج عنه، فكان ابن العنابي على بَيِّنَةٍ من أمره في الصراع القائم بين

المؤسسة العسكرية والسلطة من قضايا التحديث والتجديد، بينما كان موقفه الشخصي من ذلك وجوب مجاراة التفوق الأوروبي، وجعله من باب الواجب الشرعي منطلقا من معارفه الفقهية القائلة بتشجيع الشريعة الإسلامية للحلول العلمية والعملية لمواجهة أُمّ المشكلات ومواطن الضعف، فلا محلّ للموعظة لِرَدِّ المظالم والاعتداءات، وقد جاء في كِتَاب اللّه ما يشجّع على الاستعداد وأَخْذ الحيطة من أعداء الإسلام في قوله ﷻ: "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ"(سورة الأنفال،آ: 60).

لخَّصَ ابن العنابي سبيله لإقناع خصومه من العلماء بالتَّحَجُّجِ بآيات قرآنية، آخذا بشرحه لسورة الأنفال، فاستهلّ بتعريف الأمور الحربية والتي صنّفها ضمن الأمور الشرعية بقوله: "نَعْنِي به كل ما أنتج قوة محسوسة أو معقولة، على نية دفاع الأعداء وإرهابهم، وإغاضة نفوسهم وإتعابهم"، فكانت هذه المعاني أمورًا شرعيةً لما فيها من إذلال للكفر، وعزة للإسلام، واعلاء كلمته، وأنه المقصود الأعظم من شرعية الجهاد، فكل ما يفيد منفعة وتعلق بإعزاز للدين ورفعة شأنه...، مما تدعو إليه الحاجة، فهو أمر مشروع، بالنظر إلى أصله لما ذكرناه، ولإدراجه في عموم قوله ﷻ: " وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ"، ثم ذهب إلى ذكر النظام ومكوناته من ترتيب للعساكر، وتصنيفهم وحصر أعداءهم، وتحديد قواءهم، وتمييز أصنافهم وكبرائهم بخصوص لباس أو علامة، وتصنيف ملابسهم وتقصيرها، وتعيين مواقعهم وعملهم، وتخصيص كل فريق براية أو لواء، ثم تدريبهم على الحرب.

كانت الأمور الحربية موضوع المَقْصَد الأول من كتابه الذي تَضَمَّنَتْهُ فكرتان بارزتان، شَمِلَت احداهما النظام العسكري في تسعة فصول كاملة، فكان أولها تعريفا للجند وأهميته وفي هذا يقول: "المراد جمعهم لحماية أهل الإسلام وجهاد الكفار، وإرهابهم" مستدلا بآيات من الكتاب الله العزيز وسنة رسوله الكريم ﷺ، فيما اعتنى في الثانية بترتيب الجند ومنزلة كل واحد منهم، واصفا خصاله الحربية ومعارفه، مستدلا ذلك بقوله ﷻ: "يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ"(سورة المجادلة،آ: 11)، فضلاعلى تأييد تَعَلُمِ العلوم من الأجانب فيما فيه منفعة للإسلام وأهله.

أَوْلَى ابن العنّابي أهمية في الفصول الرابع والخامس والسادس من كتابه أهمية للحديث عن ضبط الجنود في أعدادهم، مستشهدا بالأحاديث النبوية ونماذج تاريخية تعود إلى عهد الرسول ﷺ، وعن مراتب الجند ومسؤولياتهم، وأورد ألقابا لوظائف عسكرية كالعريف وهو نائب القائد (النقيب)،من دون أن يغفل ملابس الجندية وتقصيرها وتضييقها في الفصل الرابع من الكتاب، بغرض المنفعة والخدعة الحربية ودفع البرد، ثم كان الفصلان الثامن والتاسع خاتمة لحديثة عن الجيش، وخَصَّصَهُمَا لإبراز مواقف الجند، وعدم تغيير الأماكن، واستعمالهم لجمع الغنائم.

اهْتَمَّ المصلح الجزائري بالصناعة الحربية أيّما اهتمام في كتابه، إذ كانت فحوى الفصل العاشر والحادي عشر والثاني عشر منه على التوالي، فأجبرهم على تَعَلُّمِ الأدوات الحربية المبتكرة من الأعداء، وفي ذلك دعوة صريحة لتعلمها ولو من الغير بمقتضى حاجة نصرة الإسلام، كما ألحّ على ضرورة إقامة هذا النوع من الصناعة، كما حثّ الجند

على التدريب عمل التحصينات، بحفر الخنادق وحيل الحرب، وزرع الجواسيس في صفوف الأعداء لتحطيم معنويات العدو.

2.4. الإصلاح في الميدان السياسي:

اشتمل برنامج ابن العنابي الإصلاحي على أمور السياسية، والتي كانت فحوى القسم الثاني من كتابه الموسوم "السعي المحمود في تنظيم الجنود"، في حين شمل القسم الأول منه الأمور الحربية (الجيش) والذي خُصِّصَت له سبعا وتسعين صفحة من مجموع مائة وعشرين صفحة، محتويا على ستة عشر فصلا جامعا لأمور الجيش والجنود، رابطا فيه بين القوة وحضور الدين وحكمة الاجتهاد.

أما الأمور السياسية فقد حوتها الصفحات من التاسعة والتسعين إلى الصفحة الحادية عشر بعد المئة، تناول فيها الرحمة بالضعفاء، وإقامة العدل، وبذل الحقوق لمستحقيها، فبالرغم من تمجيده للعثمانيين، وتفضيلهم على غيرهم، وإظهار دورهم في التاريخ، إلاّ أنّه حذّر المعاصرين منهم من الظلم والاستبداد والانحراف عن سيرة أجدادهم قائلا: "إن حشوة القلوب على الضعفاء، والجور في الأحكام الشرعية، ومنع الحقوق من مستحقيها، والإشهار بها لمن لا يستحقها من أسباب خراب الملك وزوال الدولة"(سعد الله أبو القاسم، 1998،ص: 37).

ومثل هذه المواقف كفيلة للحكم عليه بالمؤرخ والناقد السياسي والواعظ، عند تناوله لظهور واضمحلال الدولة العباسية "لقسوة حكامها وجورهم ومنعهم الحقوق عن أهلها، ذلك أَنَّ حُكَّامها كانوا غير مهتمين بشؤون الرعية، راكضين إلى لذاتهم وإتباع شهواتهم"،(سعد الله أبو القاسم، 1998، ص:37)، فكانت بذلك مواعظا ودروسا قيمة وقاسية في ذات الوقت ساقها المؤلف إلى سلاطين الدولة

العثمانية، مذكّرا بطريقة غير مباشرة عاقبة العباسيين وزوال دولتهم بعصيان المماليك الإسلامية لهم، وتسلط التتار عليهم، وإبادة ملكهم، ومحوه من الوجود.

عَرَّفَ ابن العنابي السياسة في كتابه بأنها مصدر معاملة الرعية، فهي سلطات الحكم وسلوك الحاكم، كما تُطْلَقُ على حسن التدبير وجودة الرأي، وقد أخذها من غيره بكونهما القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الأحوال، وهو لا يرى ضرورة تقليد الغرب في التشريع وعلوم السياسة، لعدم حاجة المسلمين لهما ولاسيما العقلية الأوروبية بقوله :"إن ما على الكفرة من سياستهم العقلية فنحن في غنى عنه"(سعد الله أبو القاسم،1998،ص: 70)، إذ أَنَّ للمسلمين مرجعيتان أساسيتان هما الكتاب والسنة حاملتان للتشريعات السماوية الغنية لهم عن القوانين الوضعية الأوروبية، وهو بذلك يَتَّفقُ فيما ذهب إليه معاصره حمدان خوجة حينما حاجج الأفكار الأوروبية ذات الاتجاه الليبرالي بقوانين وأحكام الحضارة الإسلامية(سعد الله أبو القاسم، 1998،ص: 70).

رأى ابن العنّابي قوام مَبنى السياسة الشرعية في ثلاثة أمور، فالأول مرتبط بالليونة والمرونة وتبصر الحاكم، والثاني ذو صلة بالمشورة وعدم الاستبداد بالرأي مصحوبا بديموقراطية الحكم، بينما تَعلّقَ الثالث باستعمال وُلاَّة أَكفّاءٍ غير راغبين في الوظيفة، ذلك أن الولاية هي إمامة، والطلب فيها والسعي نحوها دليل على الخيانة، ثم عرّج بعدها إلى ضرورة مشاورة الحاكم للمجالس المختلفة كمجلس العلماء.

ربط العلّامة المصلح نجاح الحاكم وقوته في العدل "بكون الظلم مصدر خراب الدولة، وفي أهمية الجيش في قوة الدولة، وحرمة العلماء، ووفرة المال، وانتشار العمران، وحذَّر من محنة الإسراف والترف في صرف أموال الدولة، وجمعها بطريقة الإكراه، وأخذها ممن يعجز عن دفعها، فالملك بناءٌ والجند أسَاسُهُ، فإذا تَقَوَّى الأساس دام البناء، وبضعف الأساس ينهار الثاني، فلا سلطات إلاّ بتجنيد، ولا جند إلاّ بمال، ولا مال إلاّ بجباية، ولا جباية إلا بعمارة، ولا عمارة إلاّ بعدل والذي صار أساسا لسائر الأساسات"(سعد الله أبو القاسم، 1998، ص:77).

ما من شكّ أنَّ في ذلك تأكيد على تأييد ابن العنابي لسياسات الدول الإسلامية التي انتَهجت الإصلاح والتجديد، بالتماسنا منه تأييدًا لمحاولات الوالي المصري محمد علي الإصلاحية، مثلما بارك جهود محمود الثاني، مؤمنا بأن كل ما يفيد المسلمين في دنياهم ويجعلهم أعزة أقوياء أُوجِبَ الأخذ به أمام إقرار الشريعة الإسلامية له، ثم نادى إلى تعليم اللغات والعلوم الآلية والصناعية والطب والحساب دون أن يرَى في ذلك مخالفة للشرع، لذلك وجدناه مجتهدا ومُجَدِّدًا في العلوم الدنيوية (سعد الله أبو القاسم، 1998، ص: 83)، بينما حثّ الحاكم على تَمَسُّكِه بالأمور الأخلاقية والتعاليم الدينية والسياسية لما في ذلك سبيل لضمان نجاحه في أداء واجبه السياسي.

كانت فكرة التنبيه للمخاطر المحدقة بالأمة الإسلامية طلبا انتهجه علماء وأدباء العالم الإسلامي، فمثلما بكّر بها ابن العنابي في القرن الثالث عشر الهجري، نجد قد سبقه في ذلك ابن المقفع إبَّان القرن الثاني الهجري بعد شيوع الآفات الاجتماعية، وفساد الحكم،

فكانت دعواتهم للسهر على الرعية، وحسن التقرب منها بادية في كتبهم لدرء الفساد وإقامة العدل وتنفيذ الأحكام الشرعية، مع وجوب طاعة الرعية لحاكمها العادل المنضبط، والإخلاص في تعاونها معه، والعمل على منهج واضح قائم على اجتماع كلمة الأمة(بن قينة عمر،2000، ص:03)، مقترحا في قانون التنظيم العسكري تحديد مسؤولياته ومهامه، مع جعل ابن المقفع كل من هذه الآراء في كتاب "أمان" يحيط فيه الجندي بواجباته وحقوقه من واضعي أمير المؤمنين، ولعل أجمل ما احتواه هو نصيحته للأمير بغية إبعاد جيشه عن شؤون السياسة والاقتصاد، لكونها طريق الفساد العسكري وللخيانة، والإبقاء على مهماته في الشؤون العسكرية القتالية لا غير لما في ذلك إفساد لطبعه، وجَرْيٌ نحو المصالح المادية على حساب المصالح العامة، وتفعيل لروح الجهاد والتضحية، وانسياق نحو الأهواء والشهوات(بن قينة عمر، 2000، ص: 30).

3.4. الإصلاح في الميدانين الاجتماعي والديني:

بَذَلَ ابن العنابي جهودا جليلة حاول وساهم من خلالها في إصلاح الواقع الاجتماعي الذي آل إليه المجتمع الإسلامي عموما والجزائري على وجه الخصوص، بحكم تدريسه لعلم الحديث والفقه والدين والفتوى في الجامع الكبير، ذلك أن العادة اقتضت على الموكل إليه بمهمة الإفتاء إلقاء دروس الوعظ والإرشاد في علوم الدين والدنيا، فاستفاد منه العاكف على حلقاته، وتَسَرَّبَ اليها العام والخاص ممن اقتضت به الحاجة أَنْ يَتَزَوَّدَ بحكم الدين والشريعة في قضية شغلت مسار حياته الدينية والدنيوية.

وتَجَسَّدَ الجانب الاجتماعي من برنامجه الإصلاحي، من خلال بعض من المؤلفات مثل تلك المتعلقة بالمرأة، مُبينًا فيها الإطار الصحيح للمرأة المسلمة من خلال تعاملاتها اليومية، ولَمَّا كان صلاح المرأة من صلاح المجتمع فقد أفتى في كتابه الموسوم بـ: "رسالة في المرأة" وكل ما تعلق بكيفية صيانة عفّتها، وتجنبها مشاكل الزنا، قائلاً في فتوى له عن حجاب المرأة: "وأمَّا مؤاخاة المرأة في الله بهذا الغرض المحرم فإنها من كبائر المعاصي،...، فإنه يعتبر بذلك كافرا مرشدا لاستحلاله الحرام القطعي، فإن حرمة النظر إلى موضع الزينة من الأجنبية من الأمور القطيعة الثابتة"، ودعّم فتواه بقول الله ﷻ :"وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ"(سورة النور،آ: 31)، ويكون بذلك مؤيدا لما تضمنته العقيدة السمحاء، نافيا بذلك علاقة المرأة بغير محرمها، فكان إجماع الأمة على ذلك وفقا لما أَوْجَبَهُ الدين (سعد الله أبو القاسم، 1998،ص ص: 121-122)، تَجَنُّبًا للزندقة التي اعتبرها أداة خزي وتهديد للمجتمعات الإسلامية.

5. مواقف حول ابن العنابي وبرنامجه الإصلاحي:

تَعَدَّدَتِ وتَنَوَّعَتِ آراء الكُتُّابِ والمؤرخين في شخصية ابن العنابي وتحليل برنامجه الإصلاحي، إلاّ أنها تكاد تقف في مجملها على اعتباره رائد التجديد الإسلامي الحريص على حماية وطنه، بندائه لتطبيق شَرْعِ الله في حياة الناس، والعمل على نصرة المظلوم، والضرب على يد الظالم، وإشعار الأمة بمهمتها مع الحاكم، فكان خير ذَرّةٍ نافعة للأمة قاطبة باستفادة محمد علي من أفكاره الحضارية الإصلاحية الطموحة إلى ما فيه خير وصلاح لبلاده، والإنصاف والفضيلة لحياة الناس السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

رَأَت جُلُّ هذه الآراء في ابن العنابي عالم دين سياسي، طموح لحياة إسلامية وسط علاقات إنسانية في أمة قوية بجيشها، وبمواطنيها الأوفياء، انطلاقا من الصراع بين الغرب الرائد والشرق المتألم، لتعبِّرَ عن رفضها للاستبداد وشغفها للخير(بن قينة عمر، 2000، ص:05). كما اعتَبرَه بَعضُهُم من المصلحين والمفكرين النموذجيين الذين عرفهم العالم الإسلامي في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ونصف القرن الذي تلاه، بكونه من المبكّرين في التحذير من الفساد والعصيان العسكريين، فأوصى بتطهير تلك المؤسسة العسكرية، إلاّ أَنَّ أفكاره ذهبت أدراج الرياح، ونُفي بمجرد دخول قوات الاحتلال، مثلما تطايرت مواقفه بعدم الأخذِ بها لاسيما بعد اكتشاف السلطات الفرنسية دعوة حكومة الدّاي له، ومَنحها السيف له للدعوة إلى الجهاد بعد هزيمة سطاوالي.

بالرغم من اتفاق أراء حمدان خوجة لما نادى اليه ابن العنابي، إلاّ أَنَ المنظومة الفكرية الأولى ساعدته على إبراز الفوارق الطبيعية بين المجتمعين الجزائري المسلم والفرنسي، مثلما أدّت إلى تصوير حكمه على الشرعية الحضارية والسياسية للاستعمار الفرنسي ببعد ضَيّق لا يخرج عن وطنه الأم (الجزائر)، كما كانت أفكار ابن العنابي ذات بعد في النظر والأفق، بتعميمه في دعوته على كامل أقطار العالم الإسلامي بغية الاستفادة مما تحويه الحضارة الغربية من إيجابيات فيها صلاح وفلاح أمته قاطبة، فكان منطلق أفكاره ما سمعه عن الدولة العثمانية سيما بعد واقعة الخيرية عام 1241هـ/ 1826م، ثم ما آلت إليه الجزائر من بطش الاحتلال، ويكون بذلك قد سبق أفكار الجامعة الإسلامية(بن أزواو فتح الدين، 2017، ص:205)، بتعرضه لقضية التضامن

والوحدة الإسلامية ولمشكلة الخلافة العثمانية منذ العشرية الثالثة من القرن التاسع عشر(بن أزواو فتح الدين، 2017، ص ص: 20 2-221)، مثلما يُعَدُّ المصلح ابن العنابي أَوَّلَ مسلم جزائري طُرِدَ من وطنه على يد الاستعمار من أجل قضية قومية، بمقتضاها تجمع الدراسات على كونه بمعية حمدان خوجة قد سبقا ظهور القومية الأوروبية في أواخر القرن التاسع عشر للميلاد، وإن كانت عاطفة ابن العنابي عثمانية حرة بينما صبغت عاطفة الثاني ونعني به حمدان خوجة بالجزائرية البحتة(سعد الله أبو القاسم، 1992، ص:75).

وَصَفَ عبد الحميد بك المصلح الجزائري (ت عام 1279 هـ/ 1863م) قائلا : "كان إماما فاضلا، عارفا بالعبادات والأحكام في المذاهب الأربعة على اختلافها،...، وعالما في المنقول والمعقول، والسياسات العمومية والخصوصية الخارجية والداخلية"،(عبد الحميد بك،2000، ص: 190)، وبهذا كان ابن العنابي جديرا بالافتخار من قبل تلامذته منهم السقا الذي قال فيه : "كشاف الحقائق، منبع الرقائق والدقائق"، كما وصفه حمدان خوجة بكونه "رجل سياسي واقتصادي صالح وعادل ولكنه لم يكن محاربا"(سعد الله أبو القاسم،1998،ص: 54)،بينما اعتبره أبو القاسم سعد الله "من العلماء المسلمين ممن جاهدوا بقلمه وسيفه ولسانه، فكانت له الريادة في التجديد"، (سعد الله أبو القاسم،1998، ص:14)، علاوة على اعتباره أول من عالج قضايا العصر في كتبه وفتاويه الصادرة منه متماشيا ومصالح المسلمين(سعد الله أبو القاسم، 1998، ص:15).

خاتمة:

كانت الأسر العلمية مُحَرِّك عجلة الحياة الفكرية والثقافية الجزائرية خلال الفترة الحديثة في ظل حرصها على تعليم أبنائها، فَعُدّت خزانّا زَوّدَ المجتمع بالعلماء والفقهاء والمدرسين والقضاة ورجال الفتوى، مثلما حَمَلَت على عاتقها مهّمة التعليم في شتى مستوياته من خلال تكفُّلِهَا بزواياه ومدارسه.

تجلّت مساهمتها في الجانب السياسي باعتماد الحكّام عليها كوسائط في تسييرهم لشؤُون للبلاد، بجعلها من الأطراف الفاعلة في المجتمع، ولمَّا كانت أكثر نفوذا وتأثيرا عليه إلى جانب البيوتات الدينية، فقد لجأوا إليها، فعملوا على كسب وُدِّهَا قصد النفوذ إلى أوساط المجتمع الجزائري، حتّى أضحت أدوارها بالغة الأهمية.

أَثَّرت أحوال البلاد وما وقع فيها من تشرذم وضعف أمام تكالب أطماع الدول الأوروبية عليها، فاتَّجَهَ فكر العلماء إلى ضرورة إصلاح أوضاعها دينيا ودنيويا، بعد أن أدركوا عدم تعارض الإسلام مع نظام أوروبا الحديثة في دعوته للإصلاح، فظهر ابن العنابي ليكون مقدمة مفكري أواخر القرن الثامن عشر، وبَيّنَ الداء ومواطنه، مقترحا الدواء، آملا تغيير أوضاعها قاطبة، مُلِمًّا بالنواحي المختلفة بها العسكرية، فالسياسية فالدينية والاجتماعية، جاعلا بذلك آيات كتاب الله ﷻ وسنة رسوله الكريم ﷺ حجة لتأكيد ما ذهب إليه من حاجة إلى التجديد والتحديث، والاستلهام من النظم الغربية دون المساس بجوانب الشريعة والعقيدة.

لم يكن لمثل تلك الأفكار التنويرية لتشقّ طريقها إلى ابن العنّابي لولا ترعرعه وسط أحضان عائلة لها من المكانة العلمية

والحظوة الاجتماعية ما أهَّلَ أحد أبنائها للدعوة اليها، مُنصَبًا اهتمامه على فهم النظام الإسلامي الذي حادت عنه البلاد، فأوجب العودة إليه وتعميمه في كل مجالات الحياة العامة لإصلاح أحوال المجتمع واحلال توازنه، ولأجل ذلك كان الاجتهاد ضرورة اقتضتها الظروف في بناء أركان دولة قوية بمؤسساتها، وإزالة الفوضى، وفرض الاستقرار، ووضع حدّ لسلسلة الهزائم المتتالية في البلاد الإسلامية، ومن هنا ظهرت أراء مُلِحَة بضرورة إصلاح الجيش، وتحديث أركانه على غرار ما هو موجود عند الآخر باعتباره نقطة المقارنة.

كان ابن العنابي مؤمنا أَشَدَّ الإيمان بفكرة التجديد، والأخذ بالأنظمة العسكرية الأوروبية وباختراعاتها العلمية، دون المساس بالأمور التشريعية والسلوكية، مثلما لخّصَ اهتمامه بالأمور السياسية في أفكاره التي جاءت في عناوين عدة شملت سياسة الحكام، قوامها العدل والمساواة بين الجند، والاهتمام بالعلماء، وجمع الضرائب، والتشييد والعمران والشورى، ولَئِن كانت جُلّ هذه الأفكار منقولة عن غيره، فقد سبق وأن حَوَتْهَا مصنفات ابن خلدون في كتابه المقدمة وكذا مؤلفات ابن المقفع الفارسي في البيان الكبير والبيان الصغير، إلا أنه تبنّاها وحثّ الناس عليها، لاسيما أن مواضيعها جاءت منطبقة على أحوال العالم الإسلامي كمصر وإسطنبول وغيرهما من البلاد الاسلامية، كما نجح في طرحها في الجزائر التي كانت موضع نظره، والتي لا يختلف وضعها عن حال ما ذكر من الإيالات العثمانية، لذلك لبِسَت آراؤه ثوب النور، وبها استحَقَّ أن يكون في طليعة المتنورين في زمنه.

وافقت آراء ابن العنابي مع من سبقه في الإصلاح كابن المقفع، ولَمَّا كان الأول مَنْ طَرَحَ قضية التجديد والإصلاح في العالم الإسلامي مُلِمًّا بجوانبها السياسية والعسكرية والاجتماعية، فقد كان بذلك سبَّاقا لأفكار كل من رفاعة رافع الطهطاوي وحمدان خوجة والأفغاني ومحمد عبده وخير الدين التونسي وغيرهم.

أرجعت الدراسات التاريخية إرهاصات العمل الإصلاحي والسياسي الوطني في الجزائر إلى مطلع القرن العشرين، إلاّ أن جهود ابن العنابي تبيَّنَ لنا أن الفكرة ضاربة بجذورها في التاريخ لتعود إلى ما قبل تَعَرُّضِ الجزائر للحملة الفرنسية، حينما بدأ الشعور الوطني بل والإسلامي ينتاب الجزائريين وأقطار العالم الإسلامي قاطبة، فكان لابن العنابي الفضل بكونه حاز قصب السبق في ذلك.

قائمة المصادر والمراجع:

- القران الكريم.

1- بن أزواو، فتح الدين، (2017). **"جذور الفكر الإصلاحي في الجزائر ومؤثراته (1830م-1931م)"**. عدد4، المجلة التاريخية الجزائرية، جامعة محمد بوضياف المسيلة، ص ص 200-222.

2- بوخلوة، حسين، (2009). **عبد الكريم الفكون القسنطيني، حياته وآثاره**. رسالة ماجستير في الحضارة الإسلامية، قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، الجزائر.

3- التميمي، عبد الجليل، (1972). **أبحاث وراء ووثائق في تاريخ المغرب العربي**. د ب.ب: الدار التونسية للنشر.

4- الجيلالي، عبد الرحمن بن محمد، (2010). **تاريخ الجزائر العام**. ط1، د ب ن :شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع.

5- حاجي، فريد، (2010). **العنابي وخير الدين التونسي الإصلاح، المسعى والمآل**. أطروحة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية ببوزريعة، الجزائر.

6- ابن خلدون، عبد الرحمن، (2003). **المقدمة**. د ط، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

7- خليفي، رفيق، (2008). **البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط في نهاية القرن 3هـ إلى نهاية القرن 9ه.** رسالة ماجستير للعلوم الإسلامية، قسم التاريخ. جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، الجزائر.

8- خوجة، حمدان. (د.ت.ن)، **المرآة** .تحقق: محمد العربي الزبيري، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر و التوزيع.

9- بن رجب شاوش، حسين، (2009). **تقييدات ابن المفتي في تاريخ بشاوات الجزائر وعلمائها**. تحق: فارس كعوان. ط1، الجزائر: بيت العلمة.

10- الزمخشري، أبو القاسم محمود، (1974). **أساس البلاغة**. بيروت: دار صادر.

11- الزهار، أحمد الشريف، (1980). **مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار.** تحق: توفيق المدني، ط2. د.م: شركة الوطنية للنشر والتوزيع.

12- سعد الله، أبو القاسم، (1998). **تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830** . ط1، ج 2، بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.

13- سعد الله، أبو القاسم، (2000). **رائد التجديد الاسلامي محمد ابن العنابي**. ط2، بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.

14- السيد، سيد محمد، (د.ت.ن). **دراسات في التاريخ العثماني. ط1**، الكويت: دار الصحرة للنشر.

15- عبد الحميد بك، (2000). **أعيان من المشارقة والمغاربة**. تح: أبو القاسم سعد الله، ط1. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

16- عصمت راشد، زينب، (د.ت.ن). **تاريخ أوروبا الحديث**. (د ط). القاهرة: دار الفكر العربي.

17- ابن عنابي، محمد بن محمود الجزائري، (د. ت. ن). **السعي المحمود في نظام الجنود**. (تحق: محمد بن عبد الكريم الجزائري)، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

18- ابن الفكون، عبد الكريم بن محمد، (1987). **منشور الهداية في كشف حال من أدعى العلم والولاية**. تحق: أبو القاسم سعد الله، ط1. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

19- الفيروز أبادي، (2005). **القاموس المحيط**. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

20- بن قينة، عمر، (2000). **الرؤية الفكرية في الحاكم والرعية لدى ابن المقفع وابن العنابي والكواكبي**. ط، 1الأردن، عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع.

21- لزغم، فوزية، (2014). **البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي 1520-1830م**. رسالة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية. كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، الجزائر.

22- ابن منظور، جمال الدين محمد، (د.ت.ن). **لسان العرب**. تحق: عبد الله الكبير وآخرون، ج1، القاهرة: دار المعارف.13

23- نويهض، عادل، (1980). **معجم إعلام الجزائر ومن صدر الإسلام حتى العصر المعاصر**. ط2، بيروت، لبنان: مؤسسة نويهض الثقافية.

24- وولف، جون، (1986). **الجزائر وأوروبا**. ترجم: أبو القاسم سعد الله. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

25-Develoux, A. (1852). ***Tachrifat. Recueil de notes Historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger,*** Imp. du gouvernement.